الباب الرابع

(أ) من آيات تهيئة الأرض لاستقبال الحياة

١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

[الزمر ٦٢]

beikanat.com

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

[الزمر: ٦٢]

هذه الآية الكريمة جاءت فى مطلع الخمس الأخير من سورة الزمر، وهى سورة مكية، وآياتها خمس وسبعون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم للإشارة فيها إلى سَوْق المجرمين من الكفار والمشركين فى يوم القيامة إلى جهنم زمرًا، وإلى سَوْق المتقين من المؤمنين الموحدين الصالحين إلى الجنة زمرًا.

عرض موجز لسورة الزمر

يدور المحور الرئيسى للسورة حول قضية العقيدة وجاءت بها بعض اللمحات عن طبيعة النفس الإنسانية، وعن مصائر المؤمنين والكافرين فى الآخرة، وعما أصاب المكذبين من الأمم السابقة. وضربت السورة الكريمة عددًا من الأمثال واحتوت على العديد من الآيات الكونية الدالة على طلاقة القدرة الإلهية فى إبداع الخلق وفى إثبات قدرته ـ تعالى ـ على البعث. ويمكن تلخيص أهم القضايا التى جاءت بها سورة الزمر فى النقاط التالية:

أولاً: من ركائز العقيدة فى سورة الزمر

(١) إن القرآن الكريم هو تنزيل من الله العزيز الحكيم على خاتم الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ أنزله ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بالحق ـ قرآنًا عربيًا غير ذى عوج ـ يطالبه ﷺ كما يطالب الناس جميعًا بالإيمان به، وبعبادة الله ـ تعالى ـ وحده بإخلاص وتجرد تامين، بغير شريك، ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد؛ لأن هذه كلها من صفات المخلوقين والله ـ تعالى ـ منزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، ولذلك فهو ـ سبحانه وتعالى ـ لا يقبل من عباده إلا التوحيد الخالص لذاته العلية.

(٢) إن الذين اتخذوا أولياء يعبدونهم من دون الله، بدعوى أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، هم كاذبون فى ادعائهم، ومفترون على الله، وسوف يحكم الله - تعالى - فيهم يوم القيامة، وهو - سبحانه - لا يهدى من هو كاذب كفار؛ لأنه لا يوجد من هو أظلم لنفسه ممن كذب على الله، وكذَّب بالحق إذ جاءه.

(٣) على الذين ادعوا لله - تعالى - ولداً بغير علم ولا هدى ولا سلطان مبين أن يعلموا أن الله غنى عن الصاحبة والولد، وأنه لو أراد أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء؛ لأنه - سبحانه - هو الله الواحد القهار.

(٤) إن الله - تعالى - لا يرضى لعباده الكفر، ولكنهم إن كفروا فالله غنى عنهم، وإن آمنوا وشكروا فالله يرضى عن ذلك منهم، و﴿**لا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ والخلق جميعهم راجعون إلى الله فينبئهم بما كانوا يعملون، وهو عليم بذات الصدور.

(٥) إن الذين يشركون بالله قد يتمتعون قليلاً فى الدنيا، ثم هم فى الآخرة من أصحاب النار.

(٦) من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وأما الكفار والمشركون من أصحاب القلوب القاسية فهم فى ضلال مبين، والذى يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه يقف فى عبادة الله قانتًا آناء الليل ساجداً وقائمًا، وغيره لاه فى الدنيا حتى يفاجئه الموت: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: ٩].

(٧) إن للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة، وإن تعرضوا لشىء من الابتلاء والإيذاء فعليهم أن يهاجروا فأرض الله واسعة، أو أن يصبروا لأن الصابرين يوفون أجورهم بغير حساب.

(٨) من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ومن يهد الله فما له من مضل، ومن يضلل فما له من هاد، والرسول الكريم ما عليه إلا البلاغ، فهو ﷺ ليس على الناس بوكيل، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون.

(٩) إن رسول الله ﷺ ومن بعده كل المسلمين، بل كل الناس مأمورون جميعًا بعبادة الله ـ تعالى ـ مخلصين له الدين، وأن يكونوا لله من الشاكرين.

(١٠) إن الموت حق على العباد، وكذلك البعث والنشور.

(١١) إن الرزق من الله، وهو ـ سبحانه ـ الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

(١٢) إن الله ـ تعالى ـ هو الغفور الرحيم الذى يغفر الذنوب جميعًا.

(١٣) إن كل بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، ومن هنا كانت المسارعة فى التوبة إلى الله والإنابة إليه من أصول الدين.

(١٤) إن للآخرة نفختين: نفخة الصعق والتى تنفخ فى الصور فيصعق بها من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، ونفخة البعث والتى إذا نفخت فى الصور فإذا هم قيام ينظرون.

ثانيًا: وصف مصائر كل من المؤمنين والكافرين

فى المقابلة بين ذل الأشقياء المعذبين من أهل النار الذين كفروا بالله أو أشركوا به، وبين تكريم السعداء المكرمين من أهل الجنة الذين آمنوا بالله واتقوه حق تقاته يقول ربنا ـ تبارك وتعالى:

﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ [الزمر: ١٤ ـ ٢٠].

ويقول عز من قائل: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٢٤].

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر : ٣٣ ـ ٣٥].

ثالثا : استعراض جانب من مصائر الأمم السابقة

تصف الآيات فى سورة الزمر حال المكذبين فى الدنيا والآخرة، وتعرض شيئًا من ذلك كى يعتبر به المعتبرون مؤكدة أن الذين يكذبون رسالات ربهم يأتيهم العذاب فى الدنيا من حيث لا يشعرون فيخزيهم به الله ويتوعدهم بعذاب الآخرة الذى هو أدهى وأمر، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٢٥ ـ ٢٧].

رابعا : ضرب الأمثال

وفى التأكيد على عز التوحيد لله وذل الشرك به ضرب الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى سورة الزمر المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ بعبد مملوك لعدد من الشركاء المتشاجرين المتنازعين، وعبد مملوك لرجل واحد لا يشاركه فيه أحد، ولا ينازعه عليه منازع هل يستويان مثلاً، أى حالاً وصفة فيقول عز من قائل : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩].

خامسا : الآيات الكونية فى سورة الزمر

جاء فى سورة الزمر عدد غير قليل من الآيات الكونية الشاهدة لله ـ تعالى ـ بطلاقة القدرة فى خلق الكون، وبالقدرة على إفنائه، وبالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد، ومن هذه الآيات قوله ـ تعالى ـ :

(١) ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ [الزمر : ٥].

(٢) ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر : ٦].

(٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٢١].

(٤) ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠].

(٥) ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

(٦) ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر : ٤٦].

(٧) ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢].

(٨) ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧].

(٩) ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٦٩].

وكل آية من هذه الآيات الكونية التسع التى جاءت فى سورة الزمر تحتاج إلى معالجة خاصة فى عرض جوانب الإعجاز العلمى التى جاءت بها، ولكن لما كانت

آيتان منها فقط تقعان ضمن موضوع هذا الكتاب، وهما الآيتان رقم (٢١)، (٦٢) فإنى سوف أتعرض لمناقشتهما مبتدءاً بالآية رقم (٦٢) لشمول دلالتها على قضية الخلق بصفة عامة. وقبل الدخول إلى ذلك، أرى لزاماً علىَّ أن أعرض لأقوال عدد من المفسرين فى شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

فى شرح قوله ـ تعالى ـ :

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: ٦٢].

* ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما نصه : «أنه خالق الأشياء كلها، وربها، ومليكها، والمتصرف فيها، وكلٌّ تحت تدبيره، وقهره، وكلاءته . . .».

* وجاء فى تفسير الجلالين ـ رحمهما الله ـ مانصه : «﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى يتصرف فيه كيف يشاء».

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ما نصه : «هذا القطاع الأخير فى السورة يعرض حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذى خلق كل شىء، المالك المتصرف فى كل شىء، فتبدو دعوة المشركين للنبى ﷺ إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم فى مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه !! تبدو هذه الدعوة مستغربة، والله هو خالق كل شىء، وهو المتصرف فى ملكوت السماوات والأرض بلا شريك، فأنى يعبد معه غيره، وله وحده مقاليد السماوات والأرض؟!».

* وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ـ جزى الله كاتبيه خيراً ـ ما نصه : «﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ـ وهو وحده ـ على كل شىء وكيل، يتولى أمره بمقتضى حكمته».

* وجاء فى صفوة التفاسير ـ جزى الله كاتبها خيراً ـ ما نصه : «﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى الله ـ جل وعلا ـ خالق جميع الأشياء وموجد جميع المخلوقات،

والمتصرف فيها كيف يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أى : هو القائم على تدبير كل شىء».

ومن هذه الاستعراض يتضح أن المفسرين قد أوجزوا فى شرح دلالة هذه الآية الكريمة على الرغم من ضخامة تلك الدلالة.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

تنص هذه الآية الكريمة على أن كل ما فى عالمى الغيب والشهادة هو من خلق الله الذى خلقه بعلمه وحكمته وقدرته، ويرعاه برعايته ورحمته التى لو تخلت عن الوجود طرفة عين أو أقل من ذلك لانهار وانتهى.

ومن مخلوقات عالم الغيب ما أخبرنا به القرآن الكريم عن الملائكة والجن، ومن مخلوقات عالم الشهادة أعلمنا بكل من الإنسان والحيوان والنبات - من الأحياء -، وبمختلف صور المادة والطاقة - من الجمادات - ومن أبعاد الوجود المادى بالأماكن والأزمنة.

وعملية الخلق بأبعادها الثلاثة : خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، عملية غيبية لم يشهدها أى من الجن أو الإنس؛ ولذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - فى محكم كتابه : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف : ٥١].

وعلى الرغم من ذلك يقول ربنا - عز من قائل : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[العنكبوت : ٢٠].

وبالجمع بين هاتين الآيتين الكريمتين يتضح لنا أنه على الرغم من أن الإنسان لم يشهد عملية الخلق؛ لأنها سابقة لوجوده، إلا أن الله - تعالى - قد ترك له فى صخور الأرض، وفى صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان المؤمن بالله على الوصول إلى تصور صحيح عن كيفية الخلق.

أما غير المؤمن فيرى الشواهد الحسية ويلمسها بيديه، ولكنه فى محاولة نسبة الخلق إلى غير الله فإنه يتوه فى سيل من الفروض والنظريات التى تحيد به عن الحق، ولا توصله إلى شىء صحيح أبداً.

ولذلك جاء فى هذه الآية الكريمة قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]. وجاء فى العديد غيرها من الآيات القرآنية التأكيد على حقيقة الخلق حتى لا يتوه الناس فى متاهات الكفار والمشركين الذين ضلوا وأضلوا البشرية حتى فى زمن العلوم والتقنية الذى نعيشه. ولذلك جاء الفعل خلق بمشتقاته المختلفة ٢٥٢ مرة فى القرآن الكريم، مؤكداً أن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شىء.

متاهة الكافرين فى قضيتى قدم الكون وتدرج عمارة الأرض بالحياة

فى محاولة لنفى الخلق وإنكار الخالق، ادعى الكافرون منذ القدم بأزلية العالم، وجاءت الكشوف العلمية المثبتة لقدم الكون، وقدم الحياة على الأرض فتصور الملحدون فى ذلك دعما لدعواهم.

كذلك جاءت عملية اكتشاف التدرج فى الخلق ابتداء من خلق اللبنات الأولية للمادة، إلى خلق كل من الجمادات والنباتات والحيوانات حتى توجت الحياة بخلق الإنسان ـ ذلك المخلوق المكرم كما وصفه الحق ـ تبارك وتعالى ـ جاءت تلك الكشوف فتخيل فيها الكافرون دعمًا لدعواهم الباطلة بعشوائية الخلق مما لايقوم عليه دليل واحد. فربنا ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الخلق كله على مراحل متطاولة ـ وهو القادر على أن يقول للشىء كن فيكون ـ وذلك لسببين واضحين :

أولهما: أن الله ـ تعالى ـ قد أراد بذلك أن يتيح للإنسان المتدبر فى الكون الفرصة الكافية لفهم سنن الله الحاكمة للوجود كله حتى يتمكن من حسن توظيفها فى عمارة الأرض، كما يتمكن من أن يرى من خلالها شيئًا من قدرة الخالق العظيم، وعلمه، وحكمته، فيسجد له بالعبادة والطاعة، ويرى الوحدة فى بناء الكون ناطقة بوحدانية الخالق العظيم، كما يرى الزوجية فى جميع المخلوقين من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان شاهدة لله الخالق بكمال الوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، تلك

الوحدانية التى لا ينازعه فيها منازع، ولا يشاركه فيها شريك، فالجميع إبداع خلقه، وتمام صنعته، فكيف يجرؤ أحدهم على أن يتطاول على مقام الألوهية؟ والله ـ تعالى ـ يتهدد المشركين بقوله العزيز:

﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣].

ثانيهما: أن الزمن إذا كان حدّا من حدود الإنسان، ومن حدود غيره من المخلوقات، فهو من خلق الله، والمخلوق لايحد الخالق أبدا، فمهما تطاول الزمن فهو بين إصبعين من أصابع الله ـ تعالى ـ يتحكم فيه كيف يشاء.

وبدلاً من فهم القضية فى هذا الإطار، اندفع دعاة المادية إلى الافتراض الخاطئ بنفى الخلق، وإنكار الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بدعوى أزلية الخلق، أو عشوائيته، وهما افتراضان يتعارضان مع جميع الملاحظات العلمية الدقيقة فى صخور الأرض، وفى صفحة السماء، ومن هنا جاءت الآية القرآنية الكريمة التى نحن بصددها شاهدة، كما جاء غيرها من مئات الآيات التى تشهد بأن الله ـ تعالى ـ هو خالق كل شىء.

قدم الكون وانتفاء أزليته وأبديته يؤكدان حقيقة الخلق

تؤكد الملاحظات العلمية فى الجزء المدرك من الكون أن الحرارة تنتقل فيه باستمرار من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، ولو كان الكون أزليّا كما يدعى المبطلون لتساوت حرارة جميع الأجسام فيه وانتهى وجوده منذ زمن بعيد، واستمرار الكون فى التواجد مع استمرار الانتقال الحرارى ينفى أزليته، كما ينفى أبديته، ويؤكد أنه مخلوق، مستحدث، له فى الأصل بداية (يقدرها العلماء اليوم بحوالى أربعة عشر بليونًا من السنين)، ولابد وأن سوف تكون له فى يوم من الأيام نهاية لا يعلمها إلا الله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ والسنن الحاكمة للكون اليوم تشير إلى حتمية وقوعها، ولا تحدد موعدها، ومن ذلك أن الشمس تفقد من كتلتها فى كل ثانية على هيئة طاقة ما يعادل ٤,٦ مليون طن، وكما تفقد الشمس من كتلتها تفقد بقية النجوم، فهذا الكون الذى تتواجد فيه هو حتمًا إلى زوال فى لحظة يحددها الخالق ـ جلت قدرته ـ الذى أنزل لنا فى محكم كتابه قوله الحق:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

الانفجار العظيم يؤكد حقيقة الخلق

من الحقائق التى وصل إليها علماء الفلك منذ بدايات القرن العشرين حقيقة توسع الكون، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إليها، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وقال علماء الفلك: إننا إذا عدنا بهذا الاتساع إلى الوراء مع الزمن فلا بد من التقاء كل مادة الكون وطاقته مع المكان والزمان فى جرم واحد يتضاءل فى الحجم إلى حد العدم، ويتعاظم فى كم المادة والطاقة إلى حد توقف كل قوانين الفيزياء المعروفة، وهى حالة لا يستطيع العقل البشرى أن يتصورها. وهذا الجرم الابتدائى انفجر فتحول إلى سحابة من الدخان خلقت منها الأرض والسماوات. وقد سميت هذه النظرية باسم «نظرية الانفجار العظيم»، ومن شواهدها تمدد الكون، ووجود درجة حرارة ثابتة ـ حوالى ٣ درجات مطلقة ـ على جميع أطراف الجزء المدرك من الكون، ومن شواهدها كذلك تصوير بقايا الدخان الكونى الأولى على أطراف الجزء المدرك من الكون.

وعلى الرغم من معارضة عدد قليل من المتخصصين فى مجال علوم الفلك والفيزياء الفلكية لنظرية الانفجار العظيم، فإننا ـ معشر المسلمين ـ نقبل هذه النظرية، ونرتقى بها إلى مقام الحقيقة لوجود إشارة لها فى كتاب الله من قبل أربعة عشر قرنًا يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وخلق الكون بعملية انفجار كبرى من أعظم الدلائل على الخلق والتدبير؛ لأنه من المعروف أن الانفجار بطبيعته يؤدى إلى بعثرة المادة وتناثرها، مخلفًا وراءه الدمار، أما عملية الانفجار الكونى فقد أدت إلى إبداع نظام له تصميم دقيق،

محكم الكتل، والأحجام، والأبعاد، والمدارات، والسرعات، والعلاقات، وهذا النظام مبنى على نسق واحد من أدق دقائقه إلى أعظم وحداته على الرغم من تعاظم أجرامه وأبعاده ووحداته وتجمعاته، وتعقد علاقاته، مما يشهد للخالق العظيم بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. وانفجار هذه نتيجته لا يمكن أن يكون قد تم بغير تدبير وتقدير بالغى الإحكام والإتقان والإحاطة والقدرة التى لا يستطيعها إلا الخلاق الحكيم العليم.

وجود المادة وأضدادها يؤكد على حقيقتى الخلق والتدبير

منذ الربع الأول للقرن العشرين، وكلّ من الحسابات الرياضية والاكتشافات فى صفحة السماء يؤكدان حقيقة الزوجية فى الخلق، فالضوء يتحرك أحيانًا على شكل موجات وأحيانًا أخرى على شكل جسيمات ـ فوتونات ـ، وهذه الزوجية فى الخلق تتحقق أيضًا للمادة، فالجزء من المادة ليس نقطة هندسية، ولكنه كيان ينتشر أيضًا فى الفضاء على هيئة موجية. وقد أدت هذه الملاحظة إلى اكتشاف نقيض للإلكترون (أو قرين له)، وأن هذين النقيضين إذا التقيا فإن أحدهما يلغى الآخر، أى يفنيه وينهى وجوده إلى العدم. ومعنى ذلك أن أية كمية محدودة من الطاقة يمكن أن تتجسد فى جسيمين، أحدهما نقيض لصاحبه فى كل صفاته، أى صورة طبق الأصل له ولكنه معكوس الصفات، وأن هذين النقيضين إذا التقيا فإنهما يفنيان معًا. والغريب فى الأمر أن يكتشف فى صفحة السماء المادة وأضدادها على مختلف المستويات من اللبنات الأولية للمادة إلى المادة ذاتها ومن ذلك:

- الكواركات وأضدادها (**Quarks and Antiquarks**).
- النيوترينوات وأضدادها (**Neutrinos and Antineutrinos**).
- الإليكترونات وأضدادها

[**Electrons (Negatrons) and Antielectrons (Positrons)**].

- البروتونات وأضدادها (**Protons and Antiprotons**).
- النيوترونات وأضدادها (**Neutrons and Antineutrons**).
- المادة وأضدادها (**Matter and Antimatter**).

ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية أن الكون قد بدأ بتركيز من المادة وأضدادها أى بدأ من العدم. والسؤال الذى يفرض نفسه هو : من الذى فصل تلك الأضداد حتى يخلق الكون ؟ ولا يمكن لعاقل أن يتصور ذلك بغير تقدير الخلاق العليم ـ سبحانه وتعالى ـ.

وحتى بعد فصل الأضداد لكى يخلق الكون، يرى العلماء حتمية إفناء بعضها للبعض الآخر، والسؤال الذى يفرض نفسه هو : ما الفاصل بين المادة وأضدادها فى صفحة السماء الآن حتى يوجد الكون ؟ ومن الذى وضع هذا الفاصل؟ ولا يزال يحفظه؟ والجواب الذى لا مفر منه هو : وضعه الخالق العظيم الذى يقول للشىء كن فيكون. وعلى ذلك فإن مراحل خلق الكون منذ لحظة الانفجار العظيم قد خططت لها العناية الإلهية بدقة فائقة فى ضبط درجات الحرارة، ومعدلات تخلق الجسيمات الأولية للمادة، وسرعات الاتساع الكونى، وغير ذلك من أمور تمت بدقة فائقة وإحكام شديد حتى وصل الكون إلى حالته الراهنة، ولا يمكن لكل ذلك أن يتم بغير خلق وتدبير من الله الخبير العليم.

خلق العناصر فى داخل النجوم وفى صفحة السماء من أدلة الخلق والتدبير

فى دراسة للتركيب الكيميائى للجزء المدرك من الكون، اتضح أن غالبيته يتكون من غاز الأيدروچين الذى يشكل أكثر من ٧٤٪ من مادة الكون المنظور، والأيدروچين هو أخف العناصر وأقلها بناء. ويلى غاز الأيدروچين كثرةً غاز الهيليوم الذى يكون ٢٤٪ من مادة الكون المنظور ـ وهو العنصر الثانى فى الجدول الدورى للعناصر ـ وقد دفعت هذه الملاحظة إلى الاستنتاج الصحيح أن جميع العناصر المعروفة وعددها أكثر من مائة عنصر قد خلقت كلها من غاز الأيدروچين (تآصل العناصر).

وبدراسة أقرب النجوم إلينا ـ وهى الشمس ـ اتضح أن وقودها هو غاز الأيدروچين الذى تتحد أربع من نوياته ـ جمع نواة مصغر ـ لتكون نواة عنصر الهيليوم، و بعملية تسمى عملية الاندماج النووى تنطلق الطاقة، وعلى ذلك فالنجوم عبارة عن أفران ذرية كونية عملاقة تتخلق بداخلها العناصر من نوى ذرات

الأيدروچين، حتى الحديد الذى لا تصله عملية الاندماج النووى إلا فى آخر مراحل حياة النجوم العملاقة فى لحظات انفجارها المعروفة باسم «المستعرات العظمى»، وبانفجار المستعر الأعظم تتناثر مكوناته من الحديد فى صفحة السماء لتدخل فى مجال جاذبية أجرام تحتاج الحديد، أو لتصطاد بعض اللبنات الأولية للمادة مكونة العناصر الأعلى فى وزنها الذرى من عنصر الحديد. وهذه العملية وحدها كافية للتأكيد على حقيقة الخلق.

بناء الخلية الحية ينطق بحتمية الخلق والتدبير

* إذا علمنا أن عدد الأنواع الحية المعروفة لنا حتى الآن يتعدى المليون ونصف المليون نوع، وأن عدد الأنواع المندثرة والموجود لها بقايا على هيئة أحافير فى صخور الأرض يتعدى الربع مليون نوع، وأن عدد الأنواع المتوقعة للحياة الأرضية فى ضوء الاكتشافات المعاصرة يصل إلى حوالى خمسة ملايين نوع.

* وأن متوسط المدى الزمنى للنوع الواحد من أنواع الحياة يتراوح بين نصف مليون سنة إلى خمسة ملايين من السنين، وقد يصل إلى عشرة ملايين من السنين فى بعض الحالات، ويمثل النوع فى كل سنة من هذه الملايين من السنين ببلايين الأفراد.

* وأن جسم الإنسان على سبيل المثال يتكون فى المتوسط من ألف مليون مليون نوع من أنواع مختلفة من الخلايا، والأرض يعمرها اليوم أكثر من ستة بلايين إنسان.

* وأن الخلية الحية الواحدة على قدر من التعقيد فى البناء يفوق كل ما حققه الإنسان من إنجازات تقنية، فضلاً عن كل الذى فكر فى تحقيقه ولم يتمكن من ذلك بعد، على الرغم من ضآلة حجمها الذى يبلغ ٠,٠٣ من المليمتر فى المتوسط فى جسم الإنسان.

فالخلية الحية تتكون عادة من جدار حىٍّ - فى كلٍّ من الإنسان والحيوان - ملىء بالسائل الخلوى (الهيولى - السيتوپلازم)، وبوسط هذا السائل توجد النواة، والسائل الخلوى معقد التركيب، وغير متجانس، ويتكون بشكل رئيسى من البروتينات والدهون، والسكريات، وبعض العناصر المختلفة، وهذا السائل توجد

به أعداد من الجسيمات المتخصصة - العضيات - ويعمل كوسيط تمر من خلاله المواد والمركبات والأوامر من النواة إلى أى من هذه العضيات، ومن أى منها إلى عضى آخر، أو إلى خارج الخلية.

ويفصل النواة عن السيتوبلازم غشاءان، والنواة تختزن معظم مادة الشفرة الوراثية للخلية الحية. أما الشبكة الإندوبلازمية فتربط بين الغشاء النووى والغشاء الخلوى، وهى شبكة معقدة تتصل بها حبيبات صغيرة تدعى الريبوسومات تقوم بتصنيع أكثر من مائتى ألف نوع من البروتينات التى تحتاجها الخلية الحية، حسب التعليمات التى تتلقاها من نواة الخلية، ومن العضيات ما يحمل الإنزيمات وهى مواد بروتينية تصنعها الريبوسومات وتساعد على هضم المواد الغذائية داخل الخلية، ومن العضيات ما يقوم بتحويل المواد العضوية إلى طاقة تحتاجها الخلية الحية فى عدد من نشاطاتها المحددة، وتعرف باسم المتقدرات **(Mitochondria)**.

وتختلف الخلية النباتية فى أن جدارها مكون من مواد غير حية، وأنها تحتوى على البلاستيدات الخضراء - اليخضور - وهى مادة لازمة لإتمام عملية التمثيل الضوئى.

والشفرة الوراثية تحملها جسيمات دقيقة فى داخل نواة الخلية تعرف باسم «الصبغيات»، وعددها محدد لكل نوع من أنواع الحياة، والصبغيات تحمل المورثات (الجينات) التى تحمل صفات الفرد من هذا النوع، والتى تعطى الأوامر للخلية بالانقسام، والتميز، وتخليق الأنواع المختلفة من البروتينات، وعلى ذلك فالنواة هى مركز المعلومات للخلية. وتحاط النواة بغشاء يسمى «الغلاف النووى»، وتحتوى على مادة حبيبية دقيقة تسمى «البلازما النووية» التى تحمل كلاً من الصبغيات والنوية، وقد تكون النوية واحدة أو أكثر.

وإذا علمنا أن الخلية الحية قد أعطاها الخالق - سبحانه وتعالى - القدرة على إنتاج مائتى ألف نوع من البروتينات التى يوجد منها أكثر من مليون نوع، وأن الجزىء البروتينى يتكون من سلاسل من جزيئات الأحماض الأمينية، وأن الأحماض الأمينية المعروفة والقادرة على بناء الجزيئات البروتينية هى عشرون حمضًا أمينيًا، وأن هذه الأحماض مواد جامدة غير حية بذاتها، متبلورة وسهلة الذوبان فى الماء فى أغلب الأحوال. وأن الحمض الأمينى يتكون من ستة عناصر أساسية هى الكربون،

والأيدروچين، والأوكسچين، والنيتروچين، والكبريت، والفوسفور. وأن مجرد اختيار هذه العناصر الستة من بين أكثر من مائة عنصر معروف لنا اليوم بالصدفة هو - إحصائيًا - أمر مستحيل.

وإن الأحماض الأمينية المناسبة لبناء الجزىء البروتينى لا بد أن تكون من نوع خاص (ألفا)، وأن تكون الذرات مرتبة فيها حول ذرة الكربون ترتيبًا يساريًا، وأن تترتب هى فى الجزىء البروتينى ترتيبا يساريا كذلك، وأن ترتبط برباط خاص يعرف باسم «الرباط الپيپتيدى - **Peptide Bond**» وأن هذه القيود تجعل من تكوين جزىء بروتينى واحد بمحض الصدفة أمرًا مستحيلا.

وإذا علمنا أن أبسط جزىء بروتينى يتكون من خمسين جزيئا من جزيئات الأحماض الأمينية العشرين المعروفة، وأن جزيئات هذه الأحماض الأمينية لا ترتبط لتكون الجزىء البروتينى إلا بكل القيود السابقة، وأن بعض أنواع الجزىء البروتينى مكون من آلاف الجزيئات للأحماض الأمينية المرتبة ترتيبًا محددًا، اتضح لنا بجلاء أن مجرد تكون جزىء بروتينى واحد بمحض الصدفة هو - إحصائيًا - من مستحيل المستحيلات، وإذا كان هذا هو الحال فى نفى إمكانية تكون جزىء بروتينى واحد بمحض الصدفة فإن تكون خلية حية واحدة بمحض الصدفة هو أشد استحالة، وتتأكد استحالة عشوائية الخلق أو إمكانية للصدفة فيه إذا نظرنا إلى الأعداد غير النهائية من الخلايا الحية التى تنتظمها أنواع متخصصة، فى أنسجة متخصصة، فى أعضاء متخصصة تعمل بتوافق تام لخدمة النوع من الحياة التى تتجمع فيه، وتشهد لخالقها بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة بهذا القرار الإلهى من قبل ألف وأربعمائة سنة لتريح هذه النفوس القلقة، والعقول المضطربة بين العديد من النظريات التى طرحت كبدائل للخلق وانتهت كلها بالفشل الذريع فسبحان القائل: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ وهو سبق علمى لكل المعارف البشرية يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الذى تلقى القرآن عن ربه فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد فى سبيل الله حتى أتاه اليقين، فجزاه الله عنا خير الجزاء، والحمد لله رب العالمين.

رسم توضيحى لبعض بدايات الحياة البحرية القديمة التى انتشرت فى بحار العصر الكمبرى (من ٥٧٠ مليون سنة مضت إلى ٥١٠ مليون سنة مضت). وفيها بعض الأعشاب البحرية، والخلية ـ والإسفنجيات، والديدان الحلقية، والمفلطحة، والحلقية، وشوكيات الجلد، وبعض الرخويات والمرجانيات.